E-KUTUB
Publisher of publishers
No 1 in the Arab world
Registered with Companies House in England
under Number: 07513024
Email: ekutub.info@gmail.com
Website: www.e-kutub.com
Germany Office
Bruchweiler 55758،Linden Strasse 22/
Rhineland-Palatinate
UK Registered Office:
،28 Lings Coppice
SE21 8SY،London
Tel: (0044)(0)2081334132

وازن البندقية على كتفه، بندقية كانت شاهده الوحيد على كلّ ما حدث. فمع رحيل الطرّاد غاليلي، لم يبق له سوى ذكريات حكاية ربّما لن تروى أبدًا بصفة كاملة. أخذ نفسا عميقا، واستدار نحو الأفق الشرقي. لم يتغيّر أيّ شيء، لا زالت الصحراء على حالها، لكنه هو، لم يعد على حاله، شيء ما استتبّ بداخله كوشم لا يزول.

بينما كلماته تتبدّد في الفضاء، كانت القذائف لا تتوقّف عن زرع الرعب والدمار في المكان، ومع كل انفجار كانت تنقبض أنفاسه ويتفجّر بالشتائم، منتظرا أن تغيّر القذائف اتجاهها، متّخذة من البناية هدفًا لها.

لم تتوقّف القذائف عن الهطول والانفجار إلّا بعدما أصبح القارب الذي على متنه البحَّارة بجانب السفينة. وبصعودهم على السطح، امتزج دوي صفارات الانذار بطلقات المدافع، معلنة الفوز وأنّ تحرير الرهائن أصبح واقعا حقيقيا. لكن وسط ذلك الصدى الاحتفالي، كان صمت الراحلين قد تكتّم على حقيقة أخرى، شعورهم بنصر، أقل إيحاء يوحي به، أنه خجول من نفسه.

بينما الطرّاد غاليلي يشق المياه، مبتعدًا عن الساحل الأغبر، استمرّ الرهائن فوق سطح السفينة، تغمرهم الغبطة غير مصدّقين ما هم فيه، شاخصين في الأفق. وهذه المرّة لا يتطلّعون إلى البحر رجاء رؤية أشرعة سفينة تنقذهم، بل إلى أفق صحراء، أصبحت ظلالها أمام أعينهم تختفي، مؤكّدة لهم عودتهم إلى الوطن، إلى ذويهم. كانوا في وقفتهم الصامتة تلك، بطريقة غير مباشرة يزفّون إلى الصحراء وداعهم الأخير، وهم مدركون أن تلك الظلال بدورها، تودّعهم بتجربتهم الغريبة والأليمة، التي سترافقهم إلى الأبد.

كان مبارك من بعيد، يرى كيف أن الطرّاد غاليلي أخذ يشقّ المياه بسرعة نحو عمق البحر. وكمارد جبار صغر طيفه شيئا فشيئا، وليتوارى بعد ذلك تاركا وراءه في الفضاء عمودين من بخار رقيقين، ما انفكّ العباب أن التهمهما، معلنا بذلك اختفاء آخر أثر للسفينة.

انفجار رغم بعده من البنايات، تتطاير شظاياه محدثة خدوشًا سوداء في عمق الأسوار البيضاء.

كان القائد أحميدو هناك. كان واقفا فوق سطح البناية الشمالية، وقفة من لا حول له ولا قوة، كلّ شيء تهاوى من حوله، وهو الذي لم يعرف قط في حياته معنى الهزيمة، شعر كيف أن الأمر فاق قدراته، خرج من يديه. فجنوده رغم أنّ جميعهم مسلحون، إلّا أنّ طلقات بنادقهم لن تجدي نفعا، أمام وابل القذائف المتهاوية، التي شكّلت بينهم وبين الرهائن حاجزًا اسمه الموت. رهائن أصبحوا على وشك الوصول إلى الزورق، بل أوّلهم، امتدّت إليه الأيدي لانتشاله من الماء.

كان غضبه وقنوطه يزدادان مع كلّ انفجار. انتفخت عروق رقبته حتّى كاد الدَّم ينفجر منها، وأخذ فكّاه العريضان يصطكان كمن يحاول إخماد صيحة تكاد تمزّق روحه، وهو في سريرته يهمس: «هذه ليست هزيمة، بل خدعة جبانة» يداه المشعّرتان واللتان عرفتا على الدوام التحكّم والسيطرة على زمام الأمور، هما الآن منقبضتان ومتجمدتان كحجرتين بلا فائدة.

— «أبناء الكلبة! القبطان يعزمك على العشاء غدًا مساءً. أبناء العاهرة. حيلة الجبناء. إنهم أرذال، أنذال» كانت كلماته تنسحق تحت صرير أسنانه بمرارة لا يمكن اخفاؤها. وتتابعت كالصدى في مهبّ الريح وهو يقول: «لو كان بحوزتي مدفع واحد من مدافعهم، لما تجرّأ هؤلاء الحقراء على التفكير في القيام بهذه الحيلة السخيفة. اللعنة عليهم. أبناء العاهرات»

نظر بيكار إلى الساعة، كانت تشير إلى الثّانية والربع. سكونٌ تامّ مقطّع بنسْنسة من هواء خفيف. بدأ القارب يتقدّم نحوهم ببطء شديد. لحظات فيها كلّ ثانية أخذت توقظ في ذاكرته، ما عاشه من مأساة وتجرّعه من ألم خلال أيّام الأسر.

كان قلبه في خفقانه شبيها بالأمواج المتكسّرة على الشاطئ، حينها كسّر الصمت:

— «يا بحّارة. عندما تشحذ الهمم، كل المستحيلات تهون. لقد اقتربنا. بعد لحظات، كلّ المستحيلات ستتكسّر أمامنا تكسّر هذه الأمواج على الصخور» كانت هناك رعشة في صوته، لم يكن سببها الحماس فقط، بل شعوره بالارتياح من اقتراب لحظة الخلاص، فردّد كما كان متفقا عليه:

— «القارب يدنو! فإلى القارب يا بحارة، إلى الحريّة!»

وكرّر البحارة وراءه بصوت واحد، وشعور تراقص بين رجفة الخوف وتوق الأنفس إلى الخلاص:

— «إلى القارب! إلى الحرية!»

— «إلى القارب، يا بحّارة! إلى الحرية!»

— «إلى القارب! إلى الحرية!»

فجأة، دوت القذيفة الأولى. وثب الرهائن في قفزات سريعة، وارتموا في البحر. استمرّت القذائف تزلزل بدويها المرعب المكان، وتوالت الانفجارات مخلّفة وراءها سحبًا من دخان أسود ممزوجًا بالغبار. كان كل

– «كوننا لا زلنا هنا، فالسؤال يجيب عن نفسه. لكن هناك شيء يهمس في داخلي، أننا عما قريب سنغادر هذا المكان»

– «ليحقق الله أمنيتكم. نحن منذ البارحة تمركزنا غير بعيد من هنا. رأينا كم تصطادون، لذا أتينا لزيارتكم وللحصول على قليل من السمك.

دون انتظار صاح بيكار على بورديك:

«ائْتِ بما هناك من سمك» ثمّ تبادل حديث مقتضب مع كامبراي.

توجّه هذا الأخير مسرعا إلى البناية، وهو الذي كان قد ودّع المكان معتقدا أنه لن يعود إليه أبدا. دخل الغرفة، ثمّ خرج منها يحمل على كتفه كيسا نصف ملآن. عند مروره بباب البناية، أرسل الحارس نظرة متسائلا عمّا في داخل الكيس.

فتح كامراي الكيس أمامه وهو يكرّر بالحسّانية كلمة سكّر واسم مبارك. كان الكيس يحتوي على شيء من السكر وبعض المعلبات، فأومأ إليه الحارس موافقا بحركة من رأسه.

– «شكرا. لقد تركتم أنفسكم بلا زاد» قال مبارك وهو يستلم الكيس.

– «لا يهمك. لدينا الكثير، وبجانبنا السفينة ملآنة من المؤونة»

– «شكرا مرّة أخرى. كنت أحبّ أن أقضي معكم وقتا، لكن السمك لا يمكنه الانتظار.

تنفس البحارة الصعداء وهم يتابعون ابتعاد الفارسين في ركض سريع على طول الشاطئ.

أخيرا تمكّن كامبراي من إبعاد الكلب بطّاح، بعد أن نهره بقوّة ورماه بأكثر من حجر، الشيء الذي لم يعهده الكلب من قبل. أرخى الكلب ذيله إلى أسفل وهرول مبتعدًا نحو البناية.

كان على كامبراي فعل ذلك خوفا على الحيوان المسكين من خطر القنابل. حينها أرسل تنهيدة عميقة، كانت مزيجا من الارتياح والحزن. استمرّ ينظر إلى الكلب بحسرة من يودّع أو يفارق عزيزا وإلى الابد.

سرعان ما رأى في نفس الاتجاه، ومن بعيد، كيف أن فارسين مقبلان في ركض سريع من الجهة الجنوبية للشاطئ، فأنذرهم بصوت عالٍ:

— «إنه مبارك، وكأنّ شيئا أنبأه»

توفّز الرهائن في اندهاش، يترقبون وصول الفارسين المفاجئ.

— «اللعنة! مستحيل! يا لها من مصادفة غير مناسبة. علينا أن نتخلّص منه في أسرع وقت ممكن» همس بيكار وهو يقترب من المجموعة.

كان القبطان لويس على سطح السفينة، يرصد بمنظاره ما طرأ على الشاطئ من تحركات، ومن خلال وقفة البحارة وحركاتهم، انتابه قلق شديد لمّا رأى أنهم في حوار متواصل مع الفارسين.

— «هل من جديد أنتكم به الباخرة؟» سأل مبارك بينما يمدّ يده مسلما على بيكار.

وجد بيكار نفسه في موقف محرج. لا يريد خديعته لكن في نفس الوقت، كشْف الخطّة التي هم على وشك القيام بها، أمر مستحيل، فردّ عليه:

— «والآن ماذا عليّ أن أفعل؟»

— «خذ القصبة وقف بجانبي»

تناولها وهو يقول:

— «لو كنت تعلم كيف أنا الآن من الارتجاف. لما ناولتني إياها. بالله عليك، عند ارتمائنا في البحر، لا تكن بعيدًا منّي، أخاف أن تتشنّج عضلاتي، ولا أقدر على السباحة»

— «كن مرتاحًا، سأكون بجانبك، وكما اتفقنا، كل منّا سيكون عونًا للآخر عند الحاجة»

غير بعيد منهما، استلقى الثلاثة الآخرون على الرّمل، وأخذوا يخلعون أحذيتهم، فعلّق جيغو:

— ذكرتني هذه الأغنية بيوم انخراطنا في العمل. ترى هل مغامرتنا هذه ستنتهي بنفس الابتهاج ونفس السعادة التي كان عليها ذلك البوّاب في ذلك اليوم؟»

— «أجزم أنها ستكون كذلك، ما دامت روحك قد تواصلت معه. أليس كذلك يا جيغون؟» سأل كامبراي وهو في صراع مع الكلب بطّاح محاولًا إرغامه على الذّهاب.

— «أكيد. فأنا يوم العاصفة، تواصلت عبر التخاطر مع زوجتي، وطلبت الرب أن يطيل حياتي حتّى أكفر أمامها عن أخطائي»

نظر بيكار إلى الساعة، فإذا بها في ربعها الأخير قبل الساعة الثانية بعد الزوال. التفت إلى حيث رفاقه، كانوا على مسافة منه، منهم من لا زال يتنزّه، ومنهم من استلقى فوق الرمل.

عندما شرع القارب الذي كان قرب قلعة البحر عائدًا نحو السفينة، وطفق الثاني يتقدّم ببطء تجاه الشاطئ، تيبّس الريق في حلق بيكار. أرسل نخنحة ثمّ أخرى في محاولة لصقل حنجرته. عليه كما تمّ الاتفاق ليلة البارحة، أن يصدح بأغنية القرصان، وبصوت عالٍ. همس مقطعًا من الأغنية، ليقيس إلى أيّ مدى ستطاوعه حنجرته، ثم أطلق لصوته العنان:

— «خمر معتّقٌ، وحسناوات

قبلاتهن مشتعلة بالحبّ

متعة، معركة، ليحيا الوغد،

أشرب، أغني، وإن وجب، أقتل

يا إلهي ما أجملهن لا، لا

يا إلهي ما أجملهن

يا إلهي ما أجملهن لا، لا»

تناغم صوته الأجش مع صدى تموّج الأمواج القادم من الأعماق، وعلى نفس الإيقاع، أخذ البحارة يتوافدون نحو نقطة اللقاء، ولسان أحدهم لم يكفّ عن تكرار مقاطع من الأغنية.

كان أوّل من وصل بورديبك.

– «أنا على وشك الانتهاء. دقائق وسألتحق بكم»

بعد أن أتمّ بيكار عمله كحلاق، أخذ نفسا عميقا عندما رحل الجندي. استمرّ وقفا عند الباب يتابع ابتعاد الرجل، الذي كان باستمرار يتحسّس رأسه بيدٍ وبالأخرى يزيل ما علق بوجهه من بقايا الشعر بعد الحلاقة.

دلف إلى الغرفة وأرسل نظرة أخيرة، كانت البطانيات هي المتاع الوحيد الذي سيتركونه وراءهم، كل واحدة مفروشة في مكانها، وكان في ركن البيت المخصّص لغرفة الطعام والمطبخ، أقداح القهوة تلمع محيطة بالإبريق. سكب ما بقي من القهوة في قدحه، شربها على عجل، ولمّا همّ بإعادة القدح إلى مكانه، تذكّر أنه ليس قدحًا عاديًّا، فكل ومضة من لمعان معدنه، توقظ في ذاكرته مشهدًا من محنتهم في الصحراء. فقرّر حمله ثمّ خرج وعلى كتفه قصبة الصيد.

أخذ له مكانًا قريبا من النقطة التي تمّ تعيينها في الرسالة كنقطة للانطلاق. رمى الشصّ، لكن لم يهدأ له بال حتّى أن رأى الزورقين يغادران السفينة. كان المدّ قد بدأ يزحف نحو اليابسة، وطفقت مياهه في هدوه تكسو وجه الرصيف المرجاني، تحت أشعة شمس تنذر بيوم شديد الحرارة.

كان بحَّارة أحد القاربين، قد أرخوا خيوط قصبات صيدهم أمام القلعة، ونفس الشيء فعله بحَّارة الزورق الآخر، إذ رموا صنانيرهم غير بعيد من المكان الذي تمّ تحديده من طرف القبطان.

أنا متيقّن اليوم أكثر من أي وقت مضى، أننا كلّنا مصممون. كلّنا مصمّمون. فإلى الأمام، إلى الحريّة»

ودون تريّث قاطعوه:

— «إلى الأمام، إلى الحريّة! إلى الأمام، إلى الحريّة!»

خرج كامبراي وجيغون، ثم تلاهما جيغو وبورديك، وعندما كان بيكار على وشك الخروج، إذا بجندي يقف عند الباب، ويطلب منه أن يقصّ له شعره.

عاد إلى داخل الغرفة مسرعًا، أخذ المقصّ، وتوجّه إلى حيث ترك الجندي ينتظره، أومأ إليه بأن يحني رأسه، حرّك رجلي المقصّ بين أصابعه مرّات، حتّى تلاشى ما اعترى يده من توتر. شرع يجزّ شعر الرّجُل، بسرعة كمن هو في مسابقة.

كان المدّ ما زال في بدايته، مما أتاح للرهائن التنقّل فوق الرصيف المرجاني بسهولة. كل واحد في يده خطاف منشغل في البحث بين الصخور عن الأخطبوط.

مضى أكثر من ربع ساعة، دون أن يظهر بيكار خارجًا من البوابة، وكان من المقرّر أن يلتحق بهم في الحال. بدأ القلق يساورهم، فتطوّع كامبراي لمعرفة ما هناك، يتبعه الكلب بطّاح الذي أصبح لا يفارقه إلا وقت النوم. عندما اجتاز البوابة، أبصره منشغلًا في عملية الحلاقة.

صاح عليه بيكار لطمأنته قائلًا:

أما كامبراي، فكان أكثرهم تفاؤلا، كان كما عهدوه بنفس المعنويات المترفعة، انكبّ على كتاب يومياته، منشغلا بتحسين طلاء الكتاب بما تيسر له من دسم.

وبيكار، رئيس الفريق، كان شغله الشاغل مراجعة خطوات الخطة، رغم بساطتها. حيث كان يقول لهم، إن الخطط البسيطة، هي أكثرها صعوبة، فسهولة الشيء تجعلنا لا نوليه العناية اللائقة. ولذا من حين لآخر كان يذكّر كل واحد منهم بدوره وما عليه أن يفعله، كل هذا بطريقة لا تخلو من الدعابة والتشجيع.

وأما جيغون فهذه المرّة أبدا اتزانا لم يعهدوه فيه من قبل، انشغل يدخن مردّدا أبيات أغنية القرصان. ومرّة من أجل إضفاء قليل من الدعابة على الجو، عندما رأى أن بورديبك قد وضع بجانبه الجورب المليء بالرمل، مازحه قائلا:

– «قمْ الآن بربط الجورب إلى حزامك حتّى لا تنساه، كي لا تضيّع علينا الكنز الذي بداخله» كان تعليقه هذا قد أدى بالجميع إلى الضحك، حتّى بورديبك نفسه.

كانت الساعة الواحدة إلا ربعا حينما وقف بيكار بينهم، وخطب فيهم خطبة قصيرة، لكنها كانت كافية لشحذ العزائم، حيث أسمعهم بصوت جوهري شديد التأثير: «من هذه اللحظة، من الآن أصبح الفرج أمامنا حقيقة، صارت حريتنا بين أيدينا، الحرية أمامنا أيها الرفاق، وأنا متيقّن كل اليقين، أن لا أحد منكم سيضيّع هذه الفرصة، التي ستخلصنا من مأساة الأسر وويلاته. إنّها فرصة الحياة، التي ستجمعنا بأبنائنا وأهالينا،

— «لو كان بوسعنا ذلك لفعلنا، يمكنك إعطاءه علبة، أما أن تمدّه بكلّ ما هناك من قهوة وسكّر، فقد يدفعه ذلك إلى التساؤل وربما إلى الشكّ. علينا أن نتصرف وكأننا سنعيش هنا إلى الأبد»

أنهوا فطورهم، وارتدوا القمصان والسراويل البيضاء كما لو أنها أدرعة قتال. ولم يبق أمامهم سوى تحدّي ساعات الانتظار. كانت كلّ دقّة لعقرب الساعة تقربهم من اللحظة الفاصلة، وكل ثانية تَمِض لها أعينهم ببريق الإصرار والتحدّي. كانت نار شغفهم لكسر قيود الأسر واسترجاع حرية طالما اشتاقوا إليها، قادرة على تأجيج همم أضعف النفوس. كان شعورهم لا شيء يستطيع الوقوف في وجه، كان أقوى من كلّ ما قد يتعرّض طريقهم من عراقيل وأخطار.

أمام ما هم مقدمون عليه، لا أحد منهم أبدى تخوّفا أو ترددا، والمحيّر في الأمر أن بورديك كان على ثقة واستعداد عاليين. لقد انزوى في ركن يتناول قهوته بهدوء في رشفات متفاوتة، ومن حين لآخر كان يسأل عن الوقت بحرفية من يتعاطى قياس الزمن كمهنة.

وكان جيغو غير بعيد منه، وقد ثبّت عينيه في الفضاء المطلّ عليه من النافذة، محاولا تفويت لحظات الانتظار بالانغماس في الذكريات، يستعيد لقطات وصورا عنه مع بناته وزوجته، ولا يكفّ عن التأكيد لنفسه أن الفراق أصبح يلفظ أنفاسه الأخيرة.

تسلّلت الضياء من النافذة المفتوحة. فتح بيكار عينيه. اشتمّ لأول مرة رائحة البلوط النافذ من خشب السقف الشاهق، كان هذا الأخير يستريح على أعمدة قاتمة من نفس الخشب، مما أعطاه رونقا. تأمّله فرأى أنّه أجمل وأحسن إتقانًا من سقف بيته في لوهافر. نظر إلى الساعة، كانت السادسة صباحًا، والكلّ ما زال نائمًا، عدا كامبراي. أحسّ بانسجام مع حركة الزمن، كان العدّ العكسي قد بدأ، وكل دقيقة بمرورها تعلن اقتراب اللحظة الحاسمة.

انسلَّ بهدوء من الفراش خوفًا من أن يزعج البقية. خرج فوجد أمامه كامبراي منشغلًا في إضرام النار. بعد التحيّة سأله وهو يفرك عينيه:

— «كيف انتهت عملية حفظ الكتاب؟»

— «على أحسن ما يرام»

— «معناه. أن لا خوف من الماء على كتاب يوميات أسرنا في الصحراء»

— «لا أريد أن أجزم. لكن ذلك ما أعتقد»

— «هذا مفرح، إنه أثمن ما سنصحبه معنا كذكرى من هذه الصحراء، إضافة إلى جورب بورديك المليء بالرمل، عفوا المليء بالذهب» وأرسل قهقهة، سارع إلى كتمانها واضعا يده على فمه.

حينها قدم عليهم الجندي المكلّف بالفرن يحمل إليهم بعض الأرغفة، فهمس كامبراي:

— «ما دمنا سنرحل، فلنسلّمه ما لدينا من قهوة وسكر، فهو مولع بشربها، وأحقّ بها من الجميع. إنه كان دومًا لطيفًا معنا»

في معدته، وكأنه بذلك شاء تفادي أرقًا قد تكون درجة إزعاجه أشدّ من التي جرّبها في أول ليلة من لياليه في الأسر.

كانوا مدركين مدى جسامة وخطورة ما هم مقدمين عليه، فكل واحد في صمت قد ارتكن إلى نفسه، يفكّر ويفكّر في الدور الذي عليه القيام به غدًا. وكان جيغو أكثرهم توترًا، أحسّ وكأن أعصابه قد تمرّدت على جسده، إذ أخذت تعبث بأطرافه في ضربات لا إرادية، فتارة تفزّ عضلة في اليد وتارة في الرجل، فتوالت اللكمات والرّكلات، ولولا التصاق الأطراف بالجسد لفارقته دون رجعة. لم يكن الخوف من المغامرة ما يقلقه، بل الخوف من ألّا ينصاع إليه جسده غدا كما يجب.

بينما كامبراي عائد إلى المبنى، تذكّر أنّه بإضافة ذلك اليوم ستكون أيامهم في الأسر قد أكملت يومها الثمانين، فتذكّر رواية جول فيرن، التي عنوانها، حول العالم في ثمانين يومًا. ابتسم وقال في نفسه: «ثمانون يومًا من الأسر في الصحراء، أو ثمانون يومًا من الأسر بين الرّحل، كلاهما يصلح عنوانًا لحكاية متكاملة، عنوان لأوديسيّتنا في الصحراء، التي لا ينقصها سوى الكتابة»

بدأت الرؤية أمامه تتّضح، بحر هادئ ما زال ينعم بسبات عميق منذ البارحة، فوق صفحة أمواجه انعكست أولى طلائع النّور في تلألؤ نجول، وانسابت فوق رمال الشاطئ المبتلّة عشرات الطيور المبكّرة بحثًا عن القوت. أما شرقًا، فبدت اليابسة تزهو بحلة الصّباح الأرجوانية المنتشرة فوق مفازاتها إلى حدّ البصر.

على لمحة خاطفة، من ذاك التمازج والتزاوج بين النور والظلام. وقف يتابع سحر المِمْحاة الخفية، وهي تمحو محوًا غير مرئيّ وببطء شديد ناعم ما على صفحة الفضاء من قتامة. مرّت عليه اللحظات، تتسرّب أمام عينيه آونة بعد أخرى، تسرّب الماء من بين الأصابع، دون أن يدرك لحظة حدوث ذلك، حتّى أن تفتّح الفضاء بضياء كلون الأقحوان. وأمام عجزه، اكتفى بما أحْيته الضياء في داخله من انسجام مع يومه الجديد، وما ولّد فيه هذا الأخير من طاقة لشحذ عزيمته في مواجهة ساعاته الاستثنائية.

لم ينم البارحة إلا بعدما أنهى صيانة وحفظ كتيّب يومياته. وكان الفضل يرجع إلى جيغون، إذ أشار إليه بتذويب الشحم، وتعويم صفحات الكتاب في السائل لوقايتها من الماء. وكي يتأكّد من نجاعة الفكرة. أخذ ورقة وملأ جزءًا منها بالكتابة، ثم غمّسها في السائل الدّسم حتّى تغيّر لونها، بعدئذ وضعها في إناء مليء بالماء مدّة ساعة، وكان يخرجها من حين لآخر ويتفحّصها، فإذا ما على الصفحة من كتابة لم تشبها شائبة، ما زالت سليمة واضحة.

وبسرور من وجد حلًّا، ذوّب كل ما وجد من الشحم وطلا به الصفحات واحدة تلو الأخرى، ثمّ لفّ الكتاب لفًّا محكمًا في قطعة ثوب من سروال له قديم، ثمّ طلاها ببقيّة الدسم.

أطفؤوا القنديل، استلقى كلّ منهم على فراشه محتمين بالظلام طلبا للراحة، لكن النوم لم يطاوعهم عدا بورديبك. فما إن وضع رأسه على ما يشبه الوسادة حتّى بدأ في النخير، والفضل كان في كميّة النبيذ التي أفرغ

الهروب

شاء كامبراي ألَّا يضيّع فرصة النزهة، في يوم قد يكون هو آخر يوم يرى فيه الصحراء. شاء ألا يفوته معاينة لحظات انبجاس النور من رحم الظلمة. اقترب من البوابة، فلم تصدر عن الحارس أي حركة أو صوت. غبشة السّحَر لم تسعفه لتبيّن إن كان يقظًا. أرسل نحنحة خفيفة، تحرك لها الحارس وناداه باسمه.

اعتاد الحرّاس على رؤيته كل فجر يغادر المبنى، ولا يعود إلا بعد طلوع الشمس. كان دومًا يفضّل الخروج حافي القدمين، وقد لا يربط حذاءه إلا إذا اشتد الحرّ وأصبحت حرارة الرمل لا تطاق. ورغم تحذيره من السير بلا نعل، كان يجد في ملامسة نعومة الرمل لقدميه متعة لا تقاوم، تغريه على المجازفة وتجاهل أن تحت الرمال ترقد أخطر أفاعي المعمورة.

كان كبقيّة الرفاق، قد فاجأته رسالة القبطان، وما تضمّنته من خطّة للفرار. لم يكن يتوقّع حلًّا من هذا النوع. كان يتصوّر نهاية أشرف لمأساتهم، فمثلًا أن يتمّ الإعلان عن إطلاق سراحهم من طرف القائد أحميدو نفسه، وأن يقيم هذا الأخير لهم، حفلة وداع بالمناسبة، ثم يخرجون رافعي الرؤوس، من بوابة بناية - طالما دلفوا منها صاغرين مطأطئين- يتقدّمون في انتشاء نحو الزورق الذي سيبحر بهم إلى السفينة، ووراءهم ملوّحين بأيديهم للوداع مَن كانوا إلى أمس سجّانيهم.

مشى طويلًا، يرافقه الهدير ووشوشة الأمواج المنكسرة بهدوء على طول الشاطئ. أدار ظهره للبحر وأخذ يتمعّن وجه السماء، عساه يقبض ولو

في تلك الليلة، ما إن غادر آخر جندي الغرفة، من الذين رافقوهم في السهرة، حتّى شرعوا في التحضير للعمليّة، وفي الأخير ختم بيكار الاجتماع قائلًا:

— «إذن اتفقنا. كلّ شيء في الخطّة على ما يرام. أرأيتم. العملية بسيطة. لا تتطّلب سوى قليل من التركيز وضبط النفس، والآن علينا أن نأخذ قسطًا من الراحة، بحجم المهمة التي تنتظرنا غدا».

سنقوم بتخليصكم، مهما كلّف الأمر ذلك، كونوا على ثقة بخبرة القبطان.

القبطان لويسْ جوريس، قائد الطرّاد غاليلي»

بعدما أتمّ قراءة الرسالة، رفع رأسه، فانعكست على وجهه مسحة كانت مزيجا من الترقّب والتخوّف. نظر إلى فريقه، كان الكلّ واجما تحت صدمة المفاجأة، فخطّة للهروب، هي أخر ما قد كانوا يتصوّرونه.

كسّر بيكار الصمت:

— «كما سمعتم، إنها خطّة للفرار. يبدو أنهم لم يتوصّلوا إلى حلّ، أو فضّلوا انتهاج هذه الطريقة لتحريرنا. وحسب رأيي الخاص، أن القرار اتخذه وزير الحربية، فالقبطان لن يجازف في عمليّة من هذا النوع دون موافقة من السلطات العليا»

— «وأخيرًا، هذا ما كان عجوز البحر، قد حرّضكم عليه في السابق، في أوّل يوم من قدوم السفينة» علّق جيغون.

— «هل الجميع موافق على خوض غمار هذه العمليّة؟ لا أريد أن أزجّكم مرّة أخرى، فيما قد لا ترغبون فيه» أوضح بيكار بنبرة صريحة ومحذّرة.

— «على أيّة حال، لا خيّار آخر أمامنا، وخير تعبير عنه هو ما تعلمته من الرحّل: هذا ماؤك يا حوتْ إمّا أن تشربه أو تموتْ» ردّ كامبراي.

— «يا للهول. يا مريم، يا أم عيسى! إنها مجازفة خطيرة» علّق بورديك بنبرة مرتعبة، ثم طأطأ رأسه كمن خجل من نفسه.

لمّا نتأكد أنكم جميعًا على الشاطئ، وأنكم لستم مراقبين عن قرب من أي مغربي مسلح، سأفتح النار وأرفع في ذات الوقت العلم الفرنسي على رأس كل صارية. سنُطلق نيران المدافع في اتجاهين. في جهة الشمال، على اليمين من البناية ذات السقف الأحمر التي يسكنها القائد أحميدو، وأيضًا في جنوبها قليلاً إلى اليسار. وهكذا سيتمّ وضعكم بين نارينْ في منطقة محميّة، حيث لا أظن أن أحدًا سيتجرأّ على إزعاجكم. وما تبقّى من العمليّة فمهمّتها علينا، فجميع المسافات تمّ دراستها بدقّة.

عند سماعكم دويّ الطلقة الأولى، عليكم أن تتجمعوا في المنتصف، بين منزل القائد أحميدو، ورصيف الصخور السوداء التي في الجهة الشمالية. في تلك النقطة بالضبط، سيتجه نحوكم الزورق لانتشالكم في أمان، دون الحاجة حتّى إلى السباحة. وإن تطلّب الأمر فوق ذلك، فإن بحّارة الزورق سيحمونكم بنار أسلحتهم.

وفي الختام أحثّكم على تفادي كل ما قد يثير الشكّ. استلقوا براحة على رمال الشاطئ، كأنّ لا شيء يشغل بالكم. وتحلّوْا بالرزانة وضبط النفس، ففي نفس اليوم، ستجدون أنفسكم معنا على متن الطرّاد غاليلي مبحرين نحو فرنسا.

إن كان ثمّة مانعًا، فما عليكم سوى الإشارة لنا بذلك. فعدم ظهوركم على الشاطئ، سندرك من خلال تلك الإشارة، أن علينا إيقاف تنفيذ الخطّة. وصمت مدافعنا سيكون برهانا، على أن الخطة قد تمّ تأجيلها إلى يوم غد الثلاثاء، أو الأربعاء، أو إلى الأيام المقبلة. لا تنسوا لباس السراويل البيضاء.

— «الإثنين 31 أغسطس» ثم علّق: «إن أوّل ما تبدأ به بعد التاريخ، جملة مكتوبة بخطّ غليظ وواضح تقول:

«أوصي بالهدوء والتأنّي خلال قراءة هذه الرسالة»

أعاد قراءة العبارة ثلاث مرات وتابع:

— «عزيزي بيكار:

الأيام تمرّ ولا جديد هناك، سوى المماطلة والأكاذيب. أعتقد أنه قد حان وقت اتخاذ القرار المناسب. وإليك ما قررتُ القيام به، إذا سنحت الظروف بذلك وكانت مناسبة، سنستغل القليل من الحريّة التي تتمتّعون بها.

غدًا عليكم أن تتجّهوا جميعًا، أي الخمسة، إلى الشاطئ، في فترة ما بعد الزوال، حوالي الساعة الواحدة. وأن تأتوا واحدًا تلو الآخر بطريقة حذرة، حتّى لا تثير تحرّكاتكم أي شكّ. حاولوا ألّا تجتمعوا في نفس المكان، أن تكونوا متفرّقين قليلًا، فبفضل السراويل البيضاء التي أرسلنا إليكم، سنتبيّنكم بسهولة، وبناء على ذلك لن نخشى أيّ التباس.

بعد الساعة الواحدة، سترون قاربين يغادران السفينة للصيد، كما اعتدنا فعله في الأيام السابقة. سيذهب زورق نحو القلعة البحرية وفي نفس الوقت سيذهب آخر قريبًا من رصيف الشعاب المرجانية. وعندما ترون أن القارب الذي عند القلعة البحرية بدأ يغادر المكان، فكونوا على أهبة الاستعداد. ولكن لا تتحرّكوا من مكانكم إلا بعد سماع الطلقة الأولى.

بسمة على شفتيه، فلولا ذلك لوجد نفسه في مأزق، إذ سيفرض عليه إعطاءه شيئًا من التبغ، من إحدى العلبتين اللتين لا يدري في أيهما تمّ دسّ الرسالة.

أخرج علبة من القهوة وأخريين من السردين ومدّها إليه. امتنع النّائب عن أخذها، لكن إلحاح بيكار المتتابع والقريب من الاستجداء، جعله في أخر المطاف يتقبّلها.

وسط الغرفة تحلّق البحّارة حول بيكار، تشوبهم حالة من التوتر. كانوا بأوجه لا تخفي اندهاشها، يترقبون بفارغ الصبر معرفة ما في الرسالة.

حاول بيكار التحكّم في نفسه، إلّا أن يديه لم تسعفانه كثيرا، حيث داهمتهما رعشة خفيفة عند إخراجه الرسالة من علبة التبغ.

— «هيّا افتحها» استعجله جيغون، وتابع بنبرة اضطربت لها شفتاه مع كلّ كلمة: «كلّما أسرعنا في معرفة فحواها، كان أفضل»

ضغط كامراي بيده على كتفه: «قليل من الصبر، أيّها البحار العجوز. دع بيكار يقوم بما يراه مناسبا. لا نريد أن نثير الانتباه»

— «نثير الانتباه! وكأننا لسنا محطّة للانتباه في هذا المكان اللعين» ردّ جيغون بضحكة ساخرة.

— «أنت محقّ يا جيغون» ردّ عليه جيغو وتابع: «وذاك معناه وجوب اتخاذنا الحيطة الكاملة»

أومأ إليه بيكار باشارة امتنان من رأسه، وبكياسة فتح الرسالة. وبدأ يقرأ:

— «نعم. نحن جميعا من لوهافر. هناك تركت بناتي الأربع في انتظاري، لا خبر لهن عنّي. لم أتصوّر أبدًا أن خاتمة مطافي ستكون هنا، في هذه الصحراء القاحلة»

— «نعم، إنّه القضاء والقدر. لكن ستعود إلى هناك قريبا. ستعود إلى عائلتك، ستعود إلى احتضان بناتك العزيزات» ردّ عليه الجندي وهو يربت على كتفه.

ما لبث أن حبلت كلمات الرهائن بذكريات الوطن والأحباب، بالأيام الجميلة والأحلام المتعثّرة، ما حوّل الحديث إلى ملاذ، كان رغم لحظته العابرة مفعما بالارتياح، فيه إنسانيتهم تحدّت كلّ القيود والشدائد.

لكن ذلك الحديث المقتضب لم يدم طويلا، حيث صاح الضابط علال على الجنديين:

— «هيّا. حان وقت الذهاب» وأردف وقد شدّ بقوّة على يد بيكار: «وداعا. كلّ شيء في الرسالة. ليكن الحظّ حليفكم»

ثم مدّ يده إلى نائب القائد أحميو، وفجأة كمن أصابه مسّ من الجنون، لطم جبينه، حتّى أن سمع الجميعُ صدى اللطمة، وقال:

— «كنت على وشك الإقدام على خطأ لا يُغتفر. لقد نسيت ما هو أهمّ. من فضلك. أخبرْ القائد أحميدو بأن القبطان لويسْ، يدعوه مساء غدٍ للعشاء على ظهر السفينة»

بعد إبحار الزورق وبينما بيكار بصدد إدخال يده في الكيس، بحثًا عمّا سيقدّمه للنائب كهديّة، تذكّر أن النائب لا يتعاطى التدخين، فارتسمت

– «ثمّة رسالة من القبطان في إحدى علب التبغ، تتضمّن كل التوضيحات»

أعاد إليه الساعة، فامتنع عن أخذها، كل هذا على مرأى من النائب، الذي التفت نحوه بيكار وقال:

– «يبدو أن الساعة أعجبته، فأهديتها له»

– «هديّة جميلة. تلك شيمة الكرام» علّق النائب.

بينما الضابط منهمكا في الحديث مع بيكار والنائب، توجّه الجنديان نحو الرهائن الذين كانوا جالسين غير بعيد. وبعد السلام، جلسوا بقربهم في هيبة واحترام، اشتركوا معهم لحظة صمت، كانت في صميمها أبلغ تعبير عن التضامن والمواساة.

أوجه الرهائن التي وسمتها الصحراء بظروفها القاسية، بشموسها المحرقة وبرد لياليها القارسة، كانت هي الأخرى تعكس، تتحدث عن حكايات مأساتهم وصمودهم، تفصح عنها دون حاجة إلى الكلمات.

كسّر الصمت أحد الجنود بنبرة هادئة متعاطفة:

– «من أين أنتم؟» وأرسل إليهم نظرة تعبّر عن اهتمامه البالغ بحالهم.

– «نحن من لوهافر» أجابه جيغون»

– «أنا كذلك من هناك، من نفس المدينة. يا لها من مصادفة!»

اندهش جيغو من التعاطف المفاجئ، فتدخّل قائلا:

جنوده يستمتع بشرب الشاي. واكتفى بإرسال نائبه، وأوصاه أن يفحص بدقّة ما قد يجلبه الزورق من حاجيات للرهائن.

كان الضّابط علّال أوّل من نزل، يحمل في يده كيسًا صغيرا، يتبعه جنديان، أحدهما يحمل كيسًا والآخر قِدرًا مليئا بالطعام.

حيّا الضابط علّال النائبَ، ومدّ إليه الكيس وهو يقول بعربية فصيحة: «هذه بعض الفواكه الطريّة من لاسْ بَالماسْ. هديّة من القبطان لويسْ للقائد أحميدو» ثم سأل:

— «هل من مستجدات؟»

— «بعد ذهابكم لم نتوصل بأي خبر» ردّ عليه النائب وقد انحنى يفتّش الكيس المخصّص للبحارة. مرّت يداه وعيناه على ما بداخله مرور الكرام، ثم أشار إليهم بأخذه.

— «حمدا للرّب على عودتكم. كاد القلق يقضي علينا» قال بيكار مشيرًا إلى الضابط علّال.

— «كان السّبب عطلًا طفيفًا في أحد المحركات» أجاب علاّل وأسقط عنوة ساعة من جيبه قرب قدمي بيكار. التقطها هذا الأخير، وقبل أن يعيدها إليه، أخذ يمسح ما علق بها من رمل.

— «إنها لكم. غدًا ستحتاجونها. قم بتأمّلها قليلا، ثم أعدها إليّ»

— «قلت سنحتاجها. لم أفهم» سأل بيكار، دون أن يزيل نظرته عن الساعة التي بين يديه.

مع جاك وما رمتهم فيه من معاناة وضياع، أفقدتهم الثقة في كلام القبطان.

سرعان ما ساقهم الحديث إلى التخمين، فكان بيكار وجيغو أقربهم إلى التفاؤل، إذ عزيا التأخر إلى عطل أصاب السفينة. واعتقد كامبراي وبورديك، أن السفينة وُجّهت إلى مهمّة أخرى، وليس لديهم سوى الصبر والانتظار. أمّا جيغون، فكان يهزأ من كلّ ذلك، مؤكّدا وبإصرار أن السّفينة لن تعود، حيث ختم كلامه بنبرة المعاتب الساخط:

— «لو كنتم في السابق أخذتم برأي هذا البحار العجوز وتشجّعتم للفرار، لجعلنا بذلك حدًّا لمأساتنا، لتخلّصنا من صحراء الويل هذه الغارقين في رمالها. لو كنتم تشجّعتم للفرار. من الافضل أن أسكت. فات الأوان. لا يهمّ، لقد حان وقت العمل»

ثمّ خرج وتوجّه لتحضير وجبة الغذاء، فرغم ما أبداه من تمرّد خلال الأيام الأخيرة، ما زال مصرًّا في التكفير عن أخطائه. لكن ما إن وصل إلى الباب، حتّى داهمه دويّ صفير قويّ، قادمًا من جهة البحر، عقبته صيحات الفرح والاندهاش، التي تدفّق صدى موجاتها من نوافذ الغرفة نحو الساحة. أخذ البحّارة وسط الغرفة يقفزون كما الأطفال ويصفّقون مكرّرين:

— «لقد عادت غاليلي. لقد عادت غاليلي»

لمّا تمّ اخبار القائد أحميدو عن قدوم السفينة، وأنّ زورقًا غادرها متّجهًا نحو الشاطئ، لم يتحرّك من مكانه، بل استمر في نفس الجلسة رفقة بعض

الخطّة المفاجئة

عند الشاطئ، بينما أعين الرهائن تتطلع بفارغ الصبر، شاخصة في الأفق البحري، كان صوت ارتطام الموج على الشاطئ، يصل إلى آذانهم، شبيها بصدى أحاسيسهم المتأرجحة بين القنوط والأمل.

لقد أكّد لهم القائد علّال أن عودة السفينة غاليلي ستكون في الصباح، وإن تأخرت ففي مساء نفس اليوم، لكنّ مع مرور الساعات أصبح القنوط أمرا لا يطاق.

كانت وقفتهم تلك عند الشاطئ تذكّرهم بوقفتهم في ذلك اليوم التعس فوق الكثيب، يوم تخلّى عنهم جاك، والفرق الوحيد بين الحالتين، هو أنهم في هذه، كان يتطلّعون إلى رؤية أعمدة بخار متصاعدة في الأفق بدل نصعان أشرعة.

أعلن النهار رحيله وعانقت الشمس في هدوء الأفق للمغيب، دون أن يلمحوا ولا علامة تشير إلى عودة الطرّاد غاليلي. وسرعان ما هاجم الظلام الشاطئ، مهيّجا بكآبته الخلاء من حولهم، فاجتاحتهم موجة من احباط لا مثيل لها، ما فرض عليهم العودة إلى المبنى مشوشي الفكر مكسوري الإرادة.

في اليوم الموالي، لم يغادروا أفرشهم إلا بعدما لامست الشمس نقطة الزوال. أطالوا جلسة فطورهم، كما لو أنهم بصدد أداء طقس شعائري. ولم يغادر أيّ منهم الغرفة، بل جميعهم في ذلك الصباح رغبوا عن رؤية البحر، وخصوصا المكان الذي كانت ترسو فيه السفينة غاليلي. فتجربتهم

أن اسم الإمبراطورية، واسم جاك الأول إمبراطور الصحراء، قد دخل التاريخ من بابه الواسع، باب العظمة والخلود».

ركّز بصره في محاولة منه لاختراق ليلٍ لفّ بحلكه الشديد وجْه البحر، شاء اختزال وطيّ المسافة الفاصلة بينه وبين طرواجة. حلّقت عيناه مع النجوم إلى أن ابتلعها الأفق شرقا، حينها داهمه الحنين بصورة حيّة عن العلم مرفرفا فوق الكثيب، ووقفته بجانب كرسي العرش أثناء خطبة العصماء، أمام جيشه معلنا ميلاد الامبراطورية... وحالما تذكّر بحارته الأسرى، ابتلع ريقه لإخماد الحريق الذي لبس حنجرته، ثمّ همس بصوت مرتعش، كما لو أن كلماته تحاول فتح طريقها بين الأمواج: «سيبرئني التاريخ، بأنّي لم أتخلّ عن حراس طرواجة، بل فعلة الحكومة البلهاء، بتركها سفني دون تراخيص للملاحة، منعتني من الابحار والعودة لتحريرهم» وفي محاولة منه للتّغلب على لحظة الانكسار، تلمّظ شفتيه مرطّبا ابتسامته المهزومة، وتابع: «المهمّ أن الإمبراطورية لم تعُد محض خيال، بل أصبحت لها عاصمة فوق الأرض. ما زال لديّ من الزمن، ما زال أمامي من السنوات، ما يجعلني أتسنّم مكانتي بين العظماء. لم يكن أمرًا اعتباطيًّا، اختياري للون الأبيض والنجوم الثلاثة الصفراء والهلال، بل كان إلهامًا من التاريخ. الأحداث الجسام لا تجابه إلّا الرجال العظام»

رفع رأسه نحو السماء ودّ لو استطاع الصياح بملء رئتيه، معلنا بنفس الصوت المحموم الذي تردّد صداه وسط الوادي الفسيح، في ذلك اليوم، عند اعلانه تشييد مدينة بوليس، إبّان تمرّد البحارة، حيث طمر في الرمال علبتين من السردين وصندوقين من الكبريت. لكنّ المكان لم يكن ملائما، ورغم ذلك، لولا هدير محركات السفينة لسمعه من كانا بجانبه، إذ قال: «ليست سوى معركة من حرب لم تنته بعد، سأعود مظفّرًا وأسترجع إمبراطوريتي، بل سأوّسعها من طرواجة إلى تومبوكتو، المهمّ

استمرّ الإمبراطور يذرع أرضية القمرة في مِشية مرتابة جيئةً وذهابًا، وكلّما سمع وقع أقدام في الممرّ، تتبّعها بإصغاء شديد، وقد يقف في بعض الأحيان وقفة من ينتظر قرعا على الباب.

لقد توجّس من الاحتمالات أسوأها، بأنّ تأخر السفينة له علاقة مباشرة بشخصه، وأنّ ثمّة أخذ وردّ بين قبطان الباخرة الألمانية وقبطان الطرّاد غاليلي، سينتهي بتسليمه للعدالة الفرنسية. فكان يرى في عمليّة التوقيف وحدها إهانة له، ناهيك عما سيتولّد عنها من عواقب على مشروعه الإمبراطوري.

ما إن شرعت السفينة آسكان تشقّ الماء، ودون أن يستأذن من أجوستين أو كمن تغافل عن حضورها. فتح الباب وهرول يقطع الممرّ متجهًا نحو السلّم الذي يقود إلى سطح السفينة. شاء أحد حراسه مرافقته، لكن أشار إليه بالتوقف.

مرّة فوق السطح، وكمن يشكو اختناقًا، لم يكتفِ بمنخريه في التقاط الهواء، بل فتح فمه، فتح باب على مصراعيه. كان هناك إضافة إلى البحَّارة وحركتهم التي لا تنقطع، عددا كبيرا من المسافرين رجالًا ونساءً وأطفالًا رفقة عائلاتهم، قد اصطفوا مع الدرابزين ومن كلا الجانبين، يتمتّعون بهواء الليل الدافئ والرطب، مرافقين السفينة في انسيابها بين السفن مغادرة الميناء.

لم يجد له مكانًا مناسبًا سوى في مؤخرة السفينة، حيث كان هناك شخصين لا غير. سنحت له المسافة الفاصلة بينهما ودوي المحركات بالوقوف دون أن يستشعرا قدومه.

لكن أمنية القنصل لم تحقق، فعندما أخبر البحَّارة بأن عليهم مغادرة المراكب، أجابوه بالرفض ما لم يتلقّوا رواتبهم. فجاك مدين لهم بأجرة شهرين كاملين.

عندما أخبر جاك، بأن عليه تسديد رواتب البحَّارة، امتنع مبررًا ذلك، أنهم ما زالوا تحت إمرته، وأن المهمة التي استأجرهم من أجلها لم تنتهِ بعد. لكن القنصل لم ييأس، بل استمرّ جاهدًا في سعيه، حتّى تمكَّن من إنزال جاك من صرحه الخيالي، ودفع ما عليه من أجور للبحارة.

بعد ذلك بأسبوع، قرّر الإمبراطور الاختفاء عن الأنظار وخصوصا عن رجال الصحافة، فانتقل للإقامة في فندق بسانتا بريخيدا، في قلب الجزيرة، التي تبعد بحوالي خمسة عشر كيلومترًا عن المدينة، واكتفى بزيارات متقطّعة لميناء لاسْ بَالماسْ.

كانت السفينة الألمانية أسكان في تلك الليلة قد تأخرت عن الإقلاع، فمن عادتها مغادرة الميناء في الساعة الثانية عشرة ليلًا.

لم يُول جاك لربع الساعة الأول أهمّية كبيرة. فغالبًا ما تتطلّب الاستعدادات وقتا إضافيا، ما يفرض على السفن في بعض الأحيان التأخّر عن الاقلاع. لكن بعد مضيّ نصف ساعة، أصبح الانتظار الذي ثوانيه تكاد تمرّ مدعاة للإزعاج. فلا شيء أشدّ إنهاكًا للنفس وللجسد، من أن يجد المرء نفسه حبيس غرفة مجبرًا على البقاء بين جدرانها وذهنه فريسة لشتى الأفكار السوداوية.

وفعلًا كان يومًا معتدل الجو، تحت شمسه المشرقة وعلى متن اليخت، كان الإمبراطور جاك يتناول فطوره رفقة أجوستين وبوسي، وذاك ما اعتاد القيام به من حين لآخر، هروبًا من رتابة حياة الفندق.

أبصر بوسي القنصل الفرنسي على الرصيف، ومن خلال وجهة سيره، قال منبِّهًا جاك:

— «أظن أن السيد كاباروس، نزهته اليوم تقوده إليكم يا جلالة الإمبراطور»

بعد سلام مقتضب، قال القنصل بنبرة من يردّ له الصاع صاعين:

— «إن حكومتنا قد أخبرت الحكومة الاسبانية بأن رخص ملاحة مراكبك أصبحت غير صالحة. ولذا عليك أن تخبر بحارة سفنك بالأمر فورا» ومدّ إليه الرسالة.

قرأ الرسالة بتمعّن، ثم أرجعها إليه وقال بنبرته المتعالية:

— «لتذهب فرنسا وتراخيصها إلى الجحيم. أما فيما يخص البحَّارة فها هم أمامك. أخبرهم بما شئت» وأشار إلى أجوستين وبوسي أن يلحقا به، ثمّ أومأ إليه بتحية فاترة، وأدار ظهره منصرفًا.

تمتم القنصل:

— «يا لك من متغطرس. سحْقاً وبُعدًا لك. لتكن هذه آخر مرة أرى فيها وجهك التعس»

— «عدت من أجل تجهيز قوة، تكون كفيلة للقيام بعملية استرداد البحارة» ثمّ أضاف بنبرة الإمبراطور الآمر: «وريثما تتمّ الترتيبات، عليك أن تبرق للحكومة الفرنسية بذلك، فمن خلال نفوذها في سان لويس بسنيغال، سيتيسّر تحريرهم وبسرعة»

ما هي إلا أيام، حتّى ذاع وانتشر خبر الرهائن، وتناقلته كل الجرائد الفرنسية والعالمية، مما فرض على حكومة باريس التدخل وإبلاغ نظيرتها الإسبانية، أنه تمّ ابطال تراخيص الإبحار التي تتمتّع بها سفن جاك. وأبرقت برسالة مماثلة إلى قنصلها كاباروس في لاسْ بَالماسْ، تأمره فيها بإبلاغ البحَّارة العاملين في مراكب الإمبراطور، أن تراخيص هذه الأخيرة بطلت وعليهم مغادرتها.

كان القنصل قد تلقّى الخبر صبيحة يوم العشرين من يوليو/ تمّوز. نبأ راقصَ بالنشوة كيانه وكل ما حوله، أحسّها تعيد إليه ما افتقده من سكينة، بعد كلّ ما عاناه من اضطرابات ومضايقات، منذ أن وطأت قدم البليّة المعتوه -كما اعتاد تسمية جاك- أرض الجزيرة. ودون تريّث هبّ واقفًا.

أخذ صولجانه واعتمر قبعته، وقبل الانصراف، انتصب أمام الباب لحظة يستقرئ نفسه، وقد داهمته صحوة شبيهة بالمدى الذي أمامه. قال وهو يستعجل الانصراف مشيرًا إلى سكرتيره:

— «هذا يوم عظيم. لا تنسَ إدراجه في سجلّ احتفالات القنصلية للسنة المقبلة، فإنه يستحقّ أكثر من تخليد»

كان تصرّف جاك وطريقة جوابه قد أغاضت الضابط، وكردّة فعل لا تخلو من انتقام، أعطى أمرًا بفرض حجر صحيّ على كل من في المركب. وخلال أيام، لم يسمح للإمبراطور ولا لبحارته بالنزول إلى اليابسة، ولولا تدخّل القنصل الفرنسي كاباروس، لطال بهم الحجر وأمتدّ إلى أجل غير مسمى.

في نفس المساء الذي سمح له بمغادرة المركب، استغلّ لحظة سيره رفقة القنصل، فأخبره عن عملية الأسر التي تعرّض لها بحّارته.

— «قل لي أنك تمزح لا غير! كيف حدث ذلك؟» ردّ القنصل في اندهاش.

— «إنهم مجموعة من المغفلين. تركتهم مدجّجين بالسلاح لحماية المكان الذي سأشيد فيه عاصمة الامبراطورية، لكن يبدو أنهم فضَّلوا الاستجمام والصيد عند الشاطئ. وبدلًا من أن يصطحبوا معهم أسلحتهم، تركوها في الخيمة، فلم تجد مجموعة من الهمج صعوبة في الاستيلاء على السلاح ثم أسرهم»

— «نحن أمام وضعية من الناحية السياسية جدّ حرجة، كي لا أقول بالغة الخطورة»

لم يول كلمات القنصل أيّة أهميّة، بل استمر يمشي بجانبه رافع الرأس، مشية لا تخلو من الأبّهة، أبّهة من هو ما زال واثقا من مشروعه الإمبراطوري، يبادل عصاه المزركشة بين يديه، ثمّ أراحها تحت ذراعه ودون أن يميل وجهه نحو مخاطبه، أو يغير من نظرته المتطلّعة إلى الأفق قال:

وشحن الواردات، وخصوصًا من وإلى إنجلترا. لكن ظهور باخرة حربية عملاقة، مدجّجة بأكثر من ستة عشر مدفعًا، أثارت فضول مئات المشاهدين، الذين توافدوا من كل أرجاء الجزيرة.

ما إن رأى جاك السفينة غاليلي ترسو في الميناء، حتّى سارع إلى إرسال حارسه الشخصي، بوسي لاستشفاف ما هناك، فعاد ليخبره أن كلّ من التقى بهم من البحارة الفرنسيين، أكدّوا له انهم قدموا في مهمّة تحرير الرهائن المحتجزين في الصحراء.

ودون انتظار، وخوفا من أن يكون هو ذاته، ضمن المهمّة التي قدمت من أجلها السفينة، سارع الإمبراطور إلى حجز تذكرة سفر باسم مستعار (البارون إنري)، في الباخرة الألمانية آسكان التي ستقلع في منتصف الليل متجّهة إلى هامبورغ.

كان ظهور الطرّاد المفاجئ في ميناء الجزيرة الضربة القاضية للإمبراطور، وأمّ الويلات وإن سبقتها ويلات يوجزها البيت الشهير: «ما كلّ ما يتمناه المرء يدركه، تجري الرياح بما لا تشتهي السفن». فعند عودته من الصحراء، أرسى في ميناء لاسْ بَالْماس رافعا فوق اليخت علم الإمبراطورية، الشيء الذي استغربته شرطة الميناء. فالعلم المجهول فوق مركب فراسكيتا لم يكن من الأعلام المعروفة ولا المرخّص لها بالإبحار. وأمام استغراب ورفض ضابط الديوانة الاعتراف بالعلم، ردّ عليه جاك بعنجهية المعتادة: «إنه علم إمبراطورية الصحراء. ويكفيك تعريفا ورخّصة أنّك أمام إمبراطورها»

لم تجده قلادتها بين المجوهرات. فعضّت على شفتها السفلى حتّى كادت تدميها، وقالت بصوت يتقطّع حسرة:

— «يا حبيبي. لقد نسيت قلادتي في الحمّام، قلادة الماس التي أهديتني يا عزيزي، بمناسبة عيد ميلادي الأخير»

لم يجبها، ولم يغير من وقفته، بل استمر واجمًا يتأمّل المرفأ من النافذة.

— «أسمعتني يا حبيبي، لقد أضعت قلادتي» عادت لتقول هذه المرّة، بنبرة أقرب إلى البكاء.

— «نعم سمعتك. يا للغرابة! الإمبراطورية مهدّدة بالضياع، ودموع الإمبراطورة تذرف على ضياع قلادة. هيا تعالي» واحتضنها بين ذراعيه وهو يقول: «أمامك يا حبيبتي، أعياد وأعياد. من أجل إنقاذ الإمبراطورية. توجّب علينا الإسراع في مغادرة الجزيرة. حتّى لا نترك للأعداء فرصة إنجاح خططهم. أرأيتِ السفينة الحربية غاليلي؟»

— «نعم. كانت حديث أغلبية من صادفت. وشاهدتُ عشرات من الجنود الفرنسيين يتجولون على الرصيف» ردّت بصوت يُساير رغبة خطيبها، لكنه لا يخلو من تأثّر وحزن.

— «إن تواجدها المباغت، لم يكن صدفة. كان أمرا مخطّطًا»

لم تكن رؤية السفن البخارية شيئًا جديدًا بالنسبة لسكان جزيرة لاسْ بَالماسْ، فمنذ مطلع السنة، بعد إتمام بناء المرفأ، تحوّل هذا الأخير إلى محطّة رئيسية للسفن البخارية الكبيرة، حيث اتخذته وجهة في رحلاتها بين أوروبا وإفريقيا وأمريكا، قادمة للتزوّد بالوقود أو لإفراغ الصادرات

اختفاء الامبراطور

أوصد الإمبراطور جاك الأول باب القمرة، واستلقى على الكرسي، ودون شعور منه، مدّ يده لينزع اللحية والشارب، لكن سرعان ما توقّف. تذكّر أنّ عملية التنكّر لم تنتهِ، ما لم تقلع الباخرة من المرفأ. أخرج الحقّ المعدنيّ من جيب سترته. فتح السدادة، ففاحت رائحة الويسكي. رشف منه جرعة وأعاده إلى جيبه. سرّح عينه في المدى المطلّ عليه من نافذة القمرة، كانت أنوار خافتة تنبثق من أجواف السفن الراسية وسط الظلام كالأشباح.

— «لا عسر إلّا وبعد يسر، فخسارة أيام ليست هزيمة» قال مواسيا نفسه بنبرة شفوقة، كمن هو بصدد مواساة شخص آخر غيره، في محاولة منه لشحذ همّته على الصمود، وهمهم: «ما هي إلا نكبة وستزول» كانت العبارة نفسها التي ختم بها كلامه، في نفس المساء عندما أخبر أجوستين بالسفر.

كانت أجوستين في تلك اللحظة أمامه منكبة تتفقّد أمتعتها. فرحيلهما المفاجئ وضيق الوقت، لم يسعفها في ترتيب حقائبها كما دأبت على القيام به.

فتحت صندوق المجوهرات وأخذت تدقّق في محتوياته، ولما لاحظت أن القلادة الموشّحة بالماس غير موجودة، قلبت الصندوق وأفرغت محتواه فوق السرير، فتناثرت الخواتم والأساور والقلائد، وتشابك بريقها فوق الملاءة الزرقاء كعناقيد النجوم في السماء.

— «نُفاجأ بماذا؟»

— «بأن يختطفوا الرهائن من جديد»

كان يمرّر خرقة مبتلة على ظهر الفرس فردّ عليه بنبرة الواثق:

— «رغم أنهم معروفون بالسطو والسلب، لا تخف. فليس من شيّمهم الغدر والإخلال بالعهد».

— «لا لم يتخلوا عنه دون مقابل. لقد قاموا ببيعه إلى السلطان الحسن الأول»

— «مهرة ومكرة كما العادة. بكم باعوه؟»

— «بخمسين ألف جنيه من الذهب. استلمت إنجلترا نصف المبلغ مقدّما والنصف عند توقيع العقد»

— «يا لها من صفقة. ما اسم القبيلة التي كانت تحتجز الرهائن؟»

عبّ الضابط علال جرعات من غليونه وأجاب:

— «لا أتذكر اسمها الآن، لكن ما أنا متيقّن منه، هو أن نفس الاسم في بعض الخرائط يطلق على هذه المنطقة من الصحراء»

— «حقّا لقد كانت عملية ذكيّة واستراتيجية من طرف السلطان، فالآن لم يعد لمرفأ الصويرة أي مرفأ ينافسه على طول هذا الجزء من الساحل الإفريقي».

عندما رأى نائب القائد أحميدو أنّ بعض المحاربين، قد أطالوا الوقوف والحديث مع البحَّارة. ولم يكن مَن اقترب منهم وشاطرهم الحديث سوى مبارك وصديقه السالك. ساوره الشك بأن القبيلة ربّما تخطّط لأمر ما، فهرول إلى داخل البناية بحثًا عن القائد أحميدو، الذي كان لحظتها يشرف على غسل فرسه مع بعض الجنود، وقال:

— «يا رئيس. ما زالت جماعات المحاربين في استعراضاتها، ومنهم من اجتمع بالبحَّارة وأطال الوقوف معهم، ألا ترى أنه من الأفضل أن نأمرهم بالعودة إلى الحصن، حتّى لا نُفاجأ؟»

جيشًا كاملًا، ومعدّات ومؤونة ليس معنا الآن منها شيئًا، وحتّى وإن كانت بحوزتنا، فملاحقتهم في القِفار أمر عسير، حتّى لا أقول مستحيلًا»

ردّ عليه الضابط علّال:

— «كما أشرت لك أمس، إن ذلك المغامر جاك، لو كان يملك قليلًا من الخبرة والمعرفة بالصحراء لما تجرّأ بالإقدام على فعلته. هذه المنطقة من الصحراء، تسكنها قبائل محاربة عرفت بشراستها. ومنذ قرون، لا تحكمهم سوى شريعة الاسلام ولا يعرفون من القوانين إلّا ما تراضوا عليه.

— «من يرى المرفأ الآن مهجورا، يصعب عليه تقبّل فكرة أنه إلى عهد قريب كان مكتظًّا بالقوافل» علّق الرائد لويسْ.

— «يقال إنه إبان ازدهاره كان يستقبل أكثر من خمس قوافل في الشهر»

— «وماذا حدث؟»

— «سخرية القدر. نفس القبيلة التي على يدها عرف ازدهاره، كانت سببا في افلاسه»

— «كيف؟»

— «بعضهم كان ضدّ التجارة مع النصارى. وتعب الانجليز من هجماتهم المتكرّرة»

— «وبهذه البساطة تخلوا عن المرفأ؟

الاستعراض

كانت عودة النصارى من وراء البحر شيئًا محتملًا، لكن ما لم يكن أحد يتوقعه أن عودتهم ستكون بتلك القوة والحجم. علم الرحّل بقدوم السفينة الحربية، التي أقلّ ما وصفتها به الألسن، أنها قلعة من الحديد والنار عائمة فوق الماء. فما كان من جماعة أَيْت أربعين إلا أن دعت الأعيان والوجهاء إلى اجتماع طارئ، فرغم أن السفينة ومن عليها من عساكر، هدفها الرهائن، إلا أن الحيطة دعتهم إلى استنفار جميع الرجال المسلحين.

منذ الضحى، وكوكبات المحاربين في جيئةٍ وذهاب، يجوبون جزء الشاطئ الذي يرسو قبالته الطرّاد غاليلي، كانوا ركّابًا على الإبل وعلى الخيل، ومدجّجين بالسلاح، وكأنهم بذلك يودّون إرسال إلى من في السفينة، أنهم جاهزون مستعدون لكلّ الاحتمالات.

كان القبطان لويسْ قد وجد في استعراض المحاربين المتواصل، فرصة لتأمل هؤلاء الرحّل الذين يُنعتون بالأشدّاء. كانت بنادقهم ذات المواسير الطويلة قد أعطتهم ميزة خاصة، إضافة لدراريعهم الزرقاء والبيضاء، التي لونها ما انفك يلمع بشدّة تحت أشعّة الشمس، وهم يمتطون بخفة واتزان أسنمة جمالهم الممشوقة وصهوات خيولهم الرشيقة، فقال مشيرًا إلى علّال:

— «تصوّر لو كان مصير البحّارة ما زال في قبضة هؤلاء. فعملية تخليصهم ستكون صعبة. فأبسط ما قد يقدمون عليه أمام أي تحرك نقوم به ضدّهم، هو التوغّل بالرهائن داخل الصحراء، حينها سيتطلّب منّا ذلك

لا تقلقوا، لقد أتينا من أجل إعادتكم إلى وطنكم فرنسا. وبدونكم لن نغادر هذا المكان. إذا رأيتم السفينة قد أقلعت من هنا، فذلك لأن اضطراب البحر قد أجبرنا على الابتعاد عن الشاطئ نحو العمق، أو أننا ذهبنا إلى جزيرة لاسْ بَالماسْ، للتزود بالوقود وإبلاغ الحكومة عن حالتكم، وخصوصًا وزير البحرية، الذي يوليكم كامل رعايته.

بضعة أيام من الصبر، وسوف تجدون أنفسكم بين أحضان عائلاتكم. سنعمل كل ما في وسعنا، وبتفانٍ من أجل إسعادكم، عسانا نخفّف عنكم ولو قليلًا ممّا لاقيتموه من معاناة.

أشدّ على أيديكم. لويسْ جوريسْ، قائد الطرّاد غاليلي»

– «لنخرج من الغرفة القذارة التي كانت على أجسادنا، حتّى نتولّى الشمس صباحا قتل ما فيها من قمل».

أما الكيس الثاني فكان في داخله أنواع من الفواكه والجبن، وخبز، وقهوة، وتبغ، وبعض المعلبات وقوارير نبيذ. كان أوّل ما قام به بيكار هو ملأ غليونه بالتبغ، ثمّ أشعله وعبّ منه، فأثته النكهة خفيفة باردة، مقارنة مع نوع التبغ الذي كان من حين لآخر، يتحفه أحد الحُرَّاس بالقليل منه، فقال وهو ينفث الدخان:

– «وكأني أعبُّ من الهواء لا غير. لقد تعوّدنا على تبغ مَانِيجَا، الشديد القساوة» ثم صاح على كامبراي الذي كان منهمكا في تحضير القهوة خارج البناية:

– «إننا في انتظارك»

دخل كامبراي بإبريق القهوة، ففاحت راحتها في فضاء الغرفة. كانت هذه أول مرة يتذوّقون فيها القهوة، بعد أكثر من شهرين. كلّ واحد أخذ يرشف في جرعات متفاوتة فنجان قهوته، متلذّذًا بطعم ورائحة السائل الزكيّة.

– «إن أبصرت أحدا مقبلًا فأخبرني. فما دامت الرسالة قد تمّ إخفاؤها في اللباس، فذاك معناه أنه لا يجب أن يطّلع عليها أحد غيرنا» قال بيكار منبّهًا جيغو الذي كان واقفًا قرب النافذة.

وشرع يقرأ:

«الطرّاد غاليلي، الثلاثاء 25 أغسطس.